

إسراق أنوار المدينة الإسلامية عاصم أوروبا من جزيرة صقلية



سعالى السيد أحمد توفيق المرى
وزير سابق
الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأساتذة الأكرمون ، أيها الأبناء النابهون .

رأيت أن يكون حديثي معكم خلال هذا الملتقى الإسلامي الراهن ، متعلقا بحدث إسلامي عظيم ، له ، وإن اهمله أغلب الباحثين ، الأثر العظيم في نشر المدينة الإسلامية الظاهرة في ربوع أوروبا المظلمة ، ألا وهو الفتح الإسلامي لجزيرة صقلية ، وانبعاث أنوار المدينة الساطعة من تلك الجزيرة الإسلامية على ما يليها من البلاد الأوروبية .

ولقد كنت ، منذ سنة 1925 ،أشيد بفضل ذلك الفتح ، وأنوّه بتلك المدينة الغربية ، وأذكر ما تميزت به عن بقية الفتوحات الشاسعة العميقة ، ثم أفت كتاب « المسلمين في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا » وأهبت بالمؤرخين وبالباحثين ان يقدموا في همة وفي حمية على دراسة تلك الحقيقة وآثارها الطيبة العميقة ، خاصة وقد مهد لهم السبيل علامه صقلي عظيم ، هو من أصل عربي لا يتطرق اليه الريب ، أعني به المؤرخ الكبير ميكال عماري ، الذي لا يجحب على مسلم أينما كان موطنـه ، ومهما كان جنسـه . ان يغفل عن كتابه الواسع العريض العميق « تاريخ المسلمين في جزيرة صقلية »، وهو في خمسة أجزاء ضخمة ، وقد أعيد طبـعة ، وعليـه تعـالـيق جـيـدة متـينة .

كذلك يجب علينا ونحن ننوه بذكر عمارى العظيم ، وكتابه المشرق ، أن نذكر له أيضا كتابا آخر لا يقل عن الكتاب الأول أهمية ، وهو كتاب « المكتبة العربية الصقلية »، وقد حشر فيه ، بأمانة واحلاص ، جميع ما ذكره العرب فى تواريختهم ورحلاتهم عن صقلية الاسلامية وعن آثارها .

لكننى رأيت ، وأنا آسف حزين ، أنه لم يقبل أحد من مؤرخي ومن كتاب المسلمين على دراسة هذه الفترة الشريعة الغربية من تاريخنا القومى ، واحياء آثارها ، والاعظام بما فيها من عبر . إلا كتابا واحدا ، مصر يا ، لا غير ، ألف كتابا عن الموضوع ، لم يكن دراسة شاملة . فانا أكرر الدعوة الملححة لكم سادتى الجلة بهذه المناسبة ، وأرجو مخلصا أن يكون من بين الحاضرين ، من يلبى الدعوة ويسمع النداء ، ويحيى من الأثر ما اندثر .

لقد اشتغل الباحثون من المسلمين ومن نصارى قدما وحديثا بدراسة تاريخ الأندلس العظيم ، واعتكفوا على استجلاء الحقائق منه ، ونالت بحوثهم من الجوانب التاريخية والسياسية والاقتصادية والأدبية والاجتماعية الشيء الكثير ، ولا تزال هنالك ، إلى يوم الناس هذا ، جامعات وجماعات ، وكتب ومجلات ، تختص بدراسة الجوانب المنيرة والجوانب الحالة من هذا التاريخ العظيم الحافل . إنما هم نسوا أو تنسوا ذكر صقلية إلى جانب ذلك . فيما كانت المدينة الاسلامية تدخل أوروبا من باب واحد فحسب ، بل انها دخلت ، والباحثون يشهدون ، من بابين اثنين : باب الاندلس وباب صقلية وجنوب ايطاليا .

انما نقول إحقاقا للحق ، ان التاريخ الاندلسي الذى اشتغلوا به كثيرا ، كان يشمل فترة من الزمن طويلة جدا ، نحو الشمانية قرون . ابتدأت من حيث التمدن والعمان والازدهار ، من سنة 138 هـ ، بدخول عبد الرحمن صقر قريش إلى بلاد الاندلس ، إلى أن كانت النهاية المحزنة المؤلمة . بينما جزيرة صقلية قد فتحت بعد ذلك

بكثير ، أى سنة 212 هجرية ، على يد القاضى المسلم الشهير ، أسد ابن الفرات ، فى دولة زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب ، صاحب عرش القiroان . وما دام الحكم الاسلامى الاصليل بجزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، بما فيه من مدنية متألقة ، وما فيه من علم ومن ادب ومن عمران ، وما فيه أيضا مما لم يدخل منه حكم اسلامى فى كل قطر من الاقطار ، من اضطراب ، ومؤامرات ، وسفك دماء ، بله وفوضى وخراب ، سوى 272 سنة فقط ، أى الى سنة 484 هجرية ، إنما لم يكمل المسلمين يغلبون على أمرهم ، وينتهى حكمهم المباشر بتلك الربع ، حتى أينعت مدنیتهم من جديد ، وازدادت اشراقا ولعانا ، تحت حكم ملوك النورمانديين ، الذين كانوا وحوشا عندما تغلبوا على الجزيرة ، فاذا بهم ، وقد حطموا ملك المسلمين بالبلاد ، واستبدوا بها ، قد انقادوا طواعية لمدنية المسلمين ، واعتمدوا على المغلوبين فى ادارة شؤون البلاد ، وحدقوا العربية الى أن كادت تصبح لغتهم القومية ، وازدهرت من جديد ، ولمدة مائة سنة ، من 484 الى 584 هجرية ، مدنية اسلامية شملت كل ميادين العلم والأدب وكل فروع العمران . وأخذنا من ذلك عبرة هي أن المسلمين اذا اقلعوا عن المنافسات والخصومات والمؤامرات من أجل الحكم وتوسيع السلطان ، اندفعوا بكل ما فيهم من طول وحول فى ميادين النهضة الكبرى والانشاء الذريع ، فكانت مدنیتهم الخلابة أكثر لعانا ، وأوسع مدى وهم مغلوبون يحكمهم ملوك النورمان ، مما كانت عليه ، وهم تحت احكام عائلات واهية ، أو سلطة ممالك افريقيية تحظمهما الشيعة حينا ، ويقضى عليها الهلاليون حينا آخر .

وهنالك عامل آخر أدى الى اضمحلال الحكم الاسلامى بالجزيرة وما يليها من بلاد الجنوب الايطالي ، ألا وهو ان المسلمين كانوا يقاتلون الروم البيزنطيين مع من انضم اليهم من رجال صقلية ، وكانت بيزنطة تدرك جيدا قيمة ذلك العقل الصقلى العظيم ، الذى يفصل بين شرق البحر الابيض المتوسط وبين غربه ، وكان ذلك العقل آخر ما بقى لها من ممتلكات وتعور شاسعة ببلاد الغرب ،

فتولت الحملات تتلو الحملات ، والغزوات تأخذ برقاب الغزوات ،
والمسلمون بالجزيرة يقاومون ، ويصابرون ، ويتغلبون وينتصرون ،
وتظير أخبار انتصارهم فتملاً أرض الشرق والغرب . وناهيك
بحروب كانت بيزنطة تضع فيها أكبر قطع من اسطولها ، وأضخم
فرق من جيوشها ، وأفتك نوع من سلاحها ، فلا تجد من يقاوم ذلك ،
ومن يرده على أعقابه خاسراً ذليلاً الا جماعة المسلمين في جزيرة
صقلية ، ولا يكادون يتلقون المدد من أحد .

وانى لذاكر لكم سادتي الجلة ، ولا أخشى التطويل ولا مضي
الوقت المحدد ، نموذجاً لتلك الحروب الطائلة ، وتلك الملحم
العروضة التي تعرضت لها تلك الجزيرة الاسلامية ، وتغلبت عليها .
فما كاد يعلن بالجزيرة مبدأ الحكم الذاتي المنفصل عن الدولة
الفاطمية ادارياً ، ويتولى أمر الجزيرة ، الأمير الحسن بن علي ،
سنة 335 هـ ، حتى تعاظم خطر الروم ، واستعدوا لمنازلة الجزيرة ،
ومحق الحكم الاسلامي فيها ، بل حاولوا فوق كل ذلك ، أو من
وراء ذلك ، استعادة سلطانهم بالارض الايطالية التي كانت راسبة
في شبه فوضى . وتولت المناوشات الاولى بين الفريقين ، وال Herb
سباح ، الى ان عمد الامبراطور الى تجهيز اسطول لم تجهز بيزنطة
مثله ، ركبته اربعون ألفاً من صناديد المقاتلين الروم ، فاحتلوا
المنطقة اليمنى من الجزيرة المواجهة لبلاد الجنوب الايطالي وتحصنتوا ،
واستعدوا للمرة الخامسة . فجمع المسلمون أمرهم لمجالدة العدو ،
وتولى قيادتهم الامير الشهم الحسن بن عمار ، واشتعلت نيران
معركة فادحة ، كان المسلمون فيها قلة ، وكان الروم فيها كثرة
كاثرة . وتولت أياماً ، بين كرٍ وفرٍ ، الى ان تمكّن المسلمون على
قلتهم من دحر الروم ، وقتل العدد الغفير منهم ، بل ان احد كرام
المجاهدين اندفع في جرأة واقدام يخترق الصدفوف الى ان وصل الى
القائد مانويل ، زعيم الروم فأطاح به جثة هامدة ، وأصبح الروم
لا يفكرون الا في الفرار ، والفوز بالنجاة . وقد ادرکوا ان لا قبل
لهم بمقاتلة هذه الفتنة القليلة بالعدد والعدد ، القوية بالایمان ، التي

تفتح الميدان تحت صيحة الله أكبر ، لا تزيد الا محق العدو ، أو الموت والفوز بالشهادة . فأدى الفرار بالروم الى جهة صعبة ، جبلية ، مشترفة على جرف عظيم ، واستمرت أعمال القتال حامية قاسية ، عنيفة،آل أمرها الى مصر عشرة آلاف من الروم ، تاركين سلاحهم ومتاعهم غنية للمسلمين ، وآبوا بقاياهم هاربة الى الاسطول ، فامتنعت صهوته ، قانعة من الغنية بالياب الى بيزنطة . وكان هذا الانتصار الاسلامي الاكبر ، يوم عرفة من سنة 354 هـ (أكتوبر 965 م) . وتتبع المسلمين بعد ذلك فلول الروم بجنوب ايطاليا ، فابعدوهم عنها ، واسروا أكثرهم هنالك . ووعلت دولة بيزنطة معنى تلك المحنة الرهيبة ، وعلمت انها لا تنال من المسلمين بعدها مثلا ، فما عادت لجزيرة اطلاقا ، ودفنت على ساحلها احلامها ومطامعها التوسعية .

لكن المسلمين في أوروبا ، ما نجاهم الله من خطر بيزنطة ورجال الروم ، حتى جعلهم يقفون أمام رجال ذوي بأس شديد ، وقوه دافعة تكاد تكون معدومة تلك الساعة ، إلا وهي قوة أمة النورمانديين الذين انقضوا بقضهم وقضيضهم على جزيرة صلقية ، فنازلوها الى أن قوّضوا سلطانها . وجندوا فرسانها ، ورفعوا فوقها أعلامهم الظافرة .

لم يكن هؤلاء القوم في باديء أمرهم الا جماعة من الوحوش يحملون شكلًا آدميًّا ، لا نستطيع أن نصفهم بأحسن مما وصفهم به بابا رومه نفسه .

فلقد أرسل البابا ليون التاسع (1049 - 1054 م) رسالته لأمبراطور القسطنطينية ، يستنجد بها الاعانة على محاربة النورمانديين ، ويصفهم بما هم أهل ، اذ يقول في رسالته :

« لقد انفطر قلبي أسى مما قضى على مندوبي ولدى أليبيروس ، فيما يتعلق بفوضى الأمة النورماندية ، وخبيثها ، وسقوطها ، واذرائتها بالدين زراية الذين لا يؤمنون . لذلك فقد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من جبروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متکالبين ،

لا يحترمون شيئاً ، ويدبحون المسيحيين بعد اذاقتهم أنواعاً من العذاب الأليم . ثم انه ليست لهم أية عاطفة إنسانية ، فهم لا يميزون بين كبير وصغير ولا بين رجل وامرأة ، وانهم ليتهبون الكنائس المقدسة ، ثم يحطموها ويوقدون فيها النار . ولطاماً لمت عليهم . وشنعت بآعمالهم ، وانذرتهم ، وحدرتهم عقاب الله وتقتله ، لكن صدق الحكيم الذى قال : ان من تخلى عنه الله بقى سرمداً في الشقاء ، وان الكلام لن يرجع العقل للمجانين » .

اما عن مسلك هؤلاء الوحش ، أثناء احتلالهم لصقلية . فقد قال عنه المؤرخ العبرى المنصف ، قوسطاف لوبون فى كتابه « مدنیات العرب » ، ما نصه :

« أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحى ، يتفانون في أعمال السلب ، والنهب ، سعياً وراء الثروة أكثر من تقاضيهم في الدفاع عن الدين . وكانوا ينتهبون أرزاق اليونانيين والطليانيين وال المسلمين بقسوة وشراسة متساوية ، فبقيت صقلية وببلاد ايطاليا المجاورة لها ، مدى خمسين عاماً ، أى مدة الفتح ، تعتبر في نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحى ، بلاداً وهبها الله لهم ، كى يكتسبوا فيها الثروة والغنى ، بكل سهولة وبساطة . ثم انه ما كان لأعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة الا خراب الجزيرة بصفة سريعة . حتى أدرك أهلها المسيحيون أن صداقه فرسان النورمان لهم ، كانت أنقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين » لكن هؤلاء الذين بعث الله بهم وحوشاً إلى ساحة صقلية ، قد انقلبوا منذ ان توطرت بالجزيرة اقدامهم – أو انقلب ملوكهم وخاصلتهم على الأقل – رجال تمدن ، وعمران ، وعلم ، وفن ، وقد ارتووا من مدينة المسلمين حتى الشمالة ، وعاد معهم الاشعاع التمدنى الاسلامى اسطع مما كان عليه من قبل .

يقول مسييو فردینان لوٹ ، فى كتابه « غارات الهمج » عن حياة المسلمين في الجزيرة مع النورمان . بعد أن تم لهؤلاء احتلال الجزيرة ، ما يلى :

« اذا كان الاستيلاء العربي على جزيرة صقلية قد انتهى ، فان الحياة العربية قد استمرت بعد ذلك طويلا . فالمملك رجار الاول ، والمملك رجار الثاني ، وكذلك الملكان غليوم الاول وغليوم الثاني، قد نفذوا جميع ما تعهدوا به لجماعة المسلمين هنالك ، من احترام عوائدهم ، وديانتهم ، ولغتهم ، وقويتهم . ثم ان ملوك النورمان قد استخدمو المسلمين ضمن جنودهم . وتركوا للمدن الصقلية ، وكانت جميعها مدن اسلامية . سائر نظمها البلدية ، والعرفية ، والصناعية ، وفتحوا في اوجه المسلمين أبواب ارفع مناصب الدولة يتولونها،اما علماء المسلمين ، ورجال الأدب والفكر منهم ، فقد كانوا خلاصة الخاصة في بلاط هؤلاء الملوك . ويقول عماري : ان الامبراطور فريديريك الثاني كما كان رجار الثاني قبله ، سلطانا من سلاطين الشرق ، لا يميّز عنهم الا تديّنه بال المسيحية » .

اما الامبراطور فريديريك الثاني ، الالماني ، الذى كان نعم الخلف لاحسن ملوك النورمان ، فقد نشأ في صقلية نشأة عربية ، وقد جمع الى مدينة المسلمين رقة الآداب اليونانية . وما كاد يتسلّم ذرى العرش ، حتى أصبح بلاطه في بالرمة بلاطا اسلاميا ، كما لو كان في قطعة من بلاد المسلمين ، وكان جيشه مؤلفا على الاكثر من أشداء المقاتلين المسلمين ، ولقد ذهب بهم الى ايطاليا ، وأسكنهم مدينة نصيرة ، وأخذ يقاتل بهم أعداءه من رجال المسيحية ، بينما كانت المسيحية ترى لزاما عليها التجمع لمحاربة المسلمين ، والتنكيل بهم ، فأحدث هذا الأمر رنة استيءان وانزعاج سادت كل أواسط المسيحية ، وما لبث البابا غير قليل ، حتى اصدر حكمه بکفر الامبراطور فريديريك ، من أجل استخدامه لل المسلمين ليحارب بهم النصارى .

بل ازداد الامر حدة وفداحة بالنسبة للنصارى ، اذ ان فريديريك استرضاء للبابا وفرا را من تبعه حكم الكفر ، فقد ذهب الى المشرق مشاركا في الحرب الصليبية ، وكأنما هو ذهب الى هنالك لا لكي يقاتل المسلمين ، بل لكي يتلقى في بلاد الشرق الاسلامي دروسا في

علم تأسيس الدول ، وتنظيم الدواوين ، فما كاد يرجع لصقلية حتى أقام نظام دولة عصرية ، شرقية ، إسلامية النزعة ، ورفض الانصياع لسلطان الكهنوت ، مما اضطر البابا أغريغوريوس التاسع أن يعلن من جديد « كفر الملك الصقلي »، ويذيع عنه أنه محارب للكنيسة ، متلف للعريات العامة»، ويقول في منشوره: «نستطيع ان ثبت أن هذا الملك الفاجر يصرح علينا بأن ثلاثة رجال من الادعاء قد ساقوا العالم الى طريق الغلط ، وهم موسى وعيسي ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه ، وأنه بينما مات موسى ومحمد في عنفوان المجد والشرف ، مات عيسى موتة حقرة وهو معلق على صليب خشبي » . ويزيد البابا على ذلك قوله: «وانه يقول : إن العقل البشري لا يتصور أن امرأة عندراء تلد إليها . ويجاهر أمام الناس بأنه لا يحق لانسان أن يعتقد الا ما يقبله العقل ويقوم عليه الدليل . وتشهد الواقع على ثبوته » .

ولقد كتب فريديريك لامبراطور القسطنطينية مرة يقول :
(يا لسعادة آسيا ويا لسعادة بلاد الشرق، هنالك لا يخشى الملوک
ثورة شعوبهم ولا دسائس رجال الدين حوالיהם) .

اما عن هذه المدنية الاسلامية الزاهرة الجديدة ، النيرة ، فأنا سأكتفى بذكر البعض مما قاله عنها كبار الباحثين والمؤرخين من رجال أوروبا نفسها :

ففوكوستاف لوبيون ، المؤرخ الباحث الفيلسوف ، يقول في كتاب « مدنیات العرب » : (ان ما لدينا من المصادر لإحياء معالم المدنية العربية بصقلية ، نادر قليل ، بل ان المعلومات الوحيدة التي لدينا ، تنحصر في روایات المؤرخين المختلفين ، وفي عدد قليل من الآثار التي سلمت من أيدي الغраб والتحطم ، وفي بعض قطع النقود) .

لكن ذلك المقدار الزهيد الذي بين ايدينا اليوم ، يكفيانا على كل حال لاقامة البرهان على ان مدنية العرب في جزيرة صقلية كانت دون مدنیتهم في اسبانيا وفي مصر ، إنما هي كانت رغم ذلك ،

موجودة ، وطيبة الاركان ، بحيث ان المستوى الفكري والصناعي والاجتماعي في صقلية ، كان أرفع عند خروج المسلمين من صقلية، من المستوى الذي كانت عليه عندما دخلوها .

(ولا يستطيع انسان ادراك مدى التأثير التمديني لشعب على آخر، الا يمدى ما أحدثه فيه من آثار اصلاحى . فإذا نحن جرينا على هذه القاعدة، رأينا ان النفوذ الصالح للعرب في جزيرة صقلية، كان عظيما) . ويقول مسيو جيهار ، في كتابه الشري : « أصول النهضة » في ايطاليا ، ما نصه :

(ان جزيرة صقلية ، امبيدو فل العتيقة ، قد أصبحت تحت أيدي المسلمين ، بما فيها من ثمانى عشرة مدينة ، وثلاثمائة وعشرين من القلاع المحصنة . وما استمر فيها من معادن الذهب والفضة ، والصفر ، ومناجم الكبريت ، وما انتشر فوق أديمها من حقول الحبوب ، ومزارع القطن وقصب السكر ، وحدائق النارنج والنخيل، وبما كان يغمرها من زهور ذات ألوان زاهية ناصعة . ومن مرابط الخيول الجياد ، ومن مصانع الأقمشة والستنديس ، وبما كان فيها من قصور ومساجد ، قد أصبحت بكل ذلك تبدو كأنها جنة من رياض الشرق اليانعة) .

ويقول الاستاذ فردينان لوت ، في كتابه الشري « غارات الهمج » يصف مدينة المسلمين بجزيرة صقلية : لقد ازدهر النفوذ الاسلامي بচقلية ازدهارا لاما من القرن التاسع الى القرن الحادى عشر . حتى يكاد يختل اليك ان صقلية قد أصبحت جزيرة عربية بحتة ، وكانت تنتظر بعد ذلك أن ترى فوق أديم الارض الصقلية معالم وآثارا تباهى بجمالها وجلالها معالم وآثار اسبانيا ، والمغرب، وتونس . لكن يا لها من خيبة أمل . انه لم يبق لنا من ذلك أى شئ »، سواء أكان ذلك من معالم الدين أو الحياة المدنية . انما يتجلّى لك نفوذ الهندسة العربية ، في قصور وكنائس التورمانديين ، أمثال قصور : القبة ، والعزيز ، والفنولا ، أو كندرائيات بالرمة وشقاليو . (فنظرا لذلك الدور العظيم الذي لعبه بأرض المزيرية

علماء الرياضة ، والمنجمون والاطباء والمهندسو المسلمون ، ونظراً لكون البلاط الملكي النورماندي . كان بلاطاً شرقياً في نظر أمّه المسيحية ، كان ينتظر أن تحيي العربية في هاتيك الديار حياةً طويلة ، لكن ذلك لم يقع . وأخذت العربية تتراجع وتتقهقر خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، إلى أن تضاءل أمرها حتى في المدن ، وذلك يرجع لسبعين اثنين : أولهما ان الطبقات الموسرة والعلياً من المسلمين قد غادرت الجزيرة إلى إفريقيا ومصر ، وثانيهما ، وهو الأهم ، ان الرهبان اللاتينيين قد أمعنوا في تنصير الناس طوعاً وكرهاً ، بحيث ان الإسلام قد اضمحل تماماً من الجزيرة خلال القرن الثالث عشر كما يلاحظه عماري) .

ويقول الرحالة الكبير ابن جبير الأندلسي ، في كتابه الشهير الشهي ، عن النساء المسيحيات في الرمة بعد زوال ملك المسلمين ، واستقرار الأقدام النورماندية بالبلاد ، ما نصه :

« وزي النصارى في هذه المدينة ، زي نساء المسلمين . وهن فصيحات الاسن ، ملتحفات ، متنقبات ، خرجن في العيد المذكور ، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتخفن باللحاف الرائق ، وانتقبن بالنقب الملؤنة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة . وبرزن لكتائبهن حاملات جميع زينة النساء المسلمات ، من التعلّ ، والتخضب ، والتعطر ، فتذكروا على جهة الدعاية الأدبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوماً * يلقى فيها جاذراً وظباء
ولقد حافظ المسيحيون أثناء الحكم الإسلامي في أرض صقلية على كل قوانينهم ، وعاداتهم . وحرية معتقدهم . ولقد قال الراهب الدرمينيكي كورادين من كنيسة القديسة كاترينينا ببالرما : « ان الرهبان كانوا يخرجون من تدينهم ثيابهم التقليدية الدينية ، وينذهبون كذلك لعيادة المرضى يحملون إليهم طقوس الدين » .

اما الراهب موركولي ، فيقص علينا قصة الحفلات الدينية في مدينة مسينا ، شرق الجزيرة ، حيث كان المسيحيون أثناء حفلاتهم

الدينية يرفعون علمين : علماً أخضر يحمل في وسطه صورة برج أسود ، وهو علم المسلمين ، وعلماً أحمر يتوسطه صليب ذهبي اللون ، وهو علم النصارى ، وقد حافظ المسيحيون خلال الحكم الإسلامي على كامل معايدهم الدينية القديمة . ويقول ياقوت الحموي ، في كتابه معجم البلدان . عند ذكر مدينة بالرملة ، انه كان فيها ثلاثة مدرس ، وان المدرسين ومعلمى الكتاتيب القرآنية كانوا لا يكلفون بحمل السلاح ، وليس عليهم أى شئ من التكاليف الحكومية . وهنالك يا سادتي آثر رخامي مكتوب ، محفوظ لا يزال شاهداً على رسوخ قدم الإسلام ومتانة اللغة العربية ، وتمكنها في البلاد ، بعد انتراص حكم المسلمين ، هو ما نقش على قبر السيدة آنة أم قسيس الملك النورماندي وهو هكذا بنصه :

« توفيت آنة أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية ، القريسية البهية المعزة بالله الملزوza بقدرته المنصورة بقوته مالكة يطالبة وانكربده وقلوريه وصقلية وافريقيا معزة امام رومية الناصرة للملة النصرانية سر مد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من أوست سنة ثلاث وأربعين وخمسين ودفنت بالجامع الاعظم ثم نقلها ولدها بالسنجد الى هذه الكنيسة حنة ميخائيلية يوم الجمعة أول ساعة العشاء العشرين مائة أربع واربعين وخمسين وبنى على قبرها هذه الكنيسة حنة انة على اسم أم مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين » .

فهل هنالك ما هو ادل على رسوخ قدم العربية والاسلام بالجزيره من ان يكتب شاهد قبر مسيحي في كنيسة مقدسة ، باللغة العربية ، مستعملاً التاريخ الهجري الاسلامي ، بعد ستين سنة من انتهاء حكم المسلمين ؟ إإنني أقول يا سادتي ، ولا أخشى مفنداً لقولي ، إن عصر النهضة الأوروبية الحديثة ، التي انبثقت باليطاليا أولاً حسبما يقوله

المؤرخون ، ثم عمت أوروبا بعد ذلك ، إنما هي قد ابتدأت في حقيقة أمرها ، بجزيرة صقلية الإسلامية ، وان من يشاهد كاتدرائيات بالرمة ، وشيفالو ، والقصر الملكي ، وقصور القبة ، والعزيز وغيرها ، حكم ، وحكمه الحق ، بان تلك الآثار إنما هي ابتكاق فجر النهضة الحقيقي . وانها سبقت مثيلاتها في البلاد الأوروبية ، وخاصة في فلورنسا وغيرها ، بعهد بعيد .

ان الذى يهمنا من أمر هذه المدينة الإسلامية الزاهرة السيرة بجزيرة صقلية ، ليس هو أثرها العظيم العميق بتلك الجزيرة التي بذر بها اجدادنا الكنعانيون من أهل قرطاجنة العتيقة ، أول بنور المدينة الشرقية في جزر النصف الأيسر من البحر المتوسط . بل الذى يهمنا ، وهو موضوع حديثنا الآن ، هو ما تسرب من تلك المدينة العظيمة إلى بقية بلاد إيطاليا ، وإلى مجموعة البلاد الأوروبية المحيطة بها . خاصة ما يتعلق منها بالفن المعماري ، العربي الأصيل ، ومن مجموعة العلوم العصرية التي آلت إلى المسلمين من كتب اليونان القديمة ، وغيرها من كتب فارس والهند ، فأخذوها ومحضوها وزادوا عليها ما جادت به عبقريتهم النادرة ، فأصبحت بذلك علوماً إسلامية محضة ، ما احتفظوا بها لأنفسهم خاصة ، إنما جادوا بها ، وبسخاء عظيم ، على بقية الشعوب وال الأمم التي كانت تتighbط في مهابي الجهة والانحطاط . فكانت البذور الصالحة لمدينة أصيلة ، علمية ، استقرت بأوروبا ، وأينعت ، وتناولتها عقول الباحثين وأيدي العاملين ، فوصلت هنالك إلى ما نراه من تقدم في العمران وازدهار في العلوم وتفوق في العقول .

وأقول هنا ، وأؤكد ، وسيصادق الباحثون ولا ريب على ما أقوله وأؤكد هو ان هذه المدينة العلمية العمرانية ، قد تسربت إلى أوروبا من جزيرة صقلية ، أكثر مما تسربت من بلاد الاندلس . وان كانت مدينة الاندلس كما اسلفنا ، أعمق وأشمل وأبعد مدى ، وان السبب في ذلك حسب رأيي ، هو أن الحضارة الإسلامية بالأندلس عندما أصبحت تفيض علماً ، وتشع أدباً وفناً ، كان الإسبان المسيحيون

الراسبون فى مستنقعات الجهل والهمجية ، قد نظروا أقسى
عسكريا ، وتألبوا على المسلمين يحاربونهم حربا لا هدوء فيها ،
ويحولون بينهم وبين الاتصال ببقية أوروبا ، فلا هم استفادوا كثيرا
من تلك المدنية اللامعة الخارقة التي كانت تجاورهم ، ولا هم تركوها
تصل من ورائهم إلى بقية البلاد .

اما ببلاد صقلية فكان الحال على غير ذلك، فقد توعدت قدم المسلمين بالارض الصقلية عصرا طويلا ، وكانت مدنيتهم بها شامخة وطيبة الاركان . ثم هم كانوا ، منذ عصر الانتشار الاول . قد اجتازوا الى ارض قلورية ، اوى جنوب ايطاليا ، واختلطوا فيها عضويا بأهله الراسبيين في مهاوى التحالف ، ومنه تدفقو الى بقية البلاد الايطالية الجنوبيّة ، كتاپولي ، وغيرها ، وأسسوا في شرق البلاد تلك الامارة الاسلامية العالية الندى . رغمما عن قصر مدتھا . الا وهى امارة باري ، فكانت كسبا للحضارة ومنارة ساطعة الاضواء . وما كان يحول بين المسلمين في صقلية حائل وبين بقية البلاد الطليانية . ولم تكن ذات علم ولا ذات عمران . فاقتربت ، واستنارت ، وقلدت ، وأخذت عن المسلمين شيئا فشيئا ما ذاع من علمهم وما بهر من . عمرائهم .

وهنالك عامل آخر ذو أهمية عظمى ، لا يجب ان ينسى ، وهو ان النورمانديين الذين خلقوا المسلمين على جزيرة صقلية ، و كانوا وحوشاً أو اشبه شيء بالوحش ، قد أخذوا عن المسلمين منذ وقائع الاحتلال الاولى ، كما رأينا ، حضارتهم ، ورقيهم ، وعمرانهم ، ونظموا دولتهم على أساس اسلامية ، واطلقوا أيدي العلماء والمفكرين المسلمين ورجال الفن والعمارة ، يبتكرون الروائع وينجذبون المدهش من الأعمال . فكانت المائة سنة التي عمرتها دولة النورمانديين في صقلية ، المسيحية دينا ، الاسلامية مدنية ونظاما وعلما ، ثروة طائلة اغدقت الخير على ايطاليا وعلى بقية اوروبا ، ونشرت العربية لسانا عاما للعلوم . فلا عجب عندئذ اذا رأينا بلاد ايطاليا الشمالية ، تنشيء

بعد ذلك ، لأول مرة عهدا من الحضارة وال عمران أطلق التاريخ عليه لقب « عصر النهضة » ترجع أصوله وجذوره ، كما يؤكده مسيو جيهر فى كتابه العظيم « أصول النهضة فى ايطاليا » الى مدينة المسلمين بصفلية ، ومن هنالك تألفت الانوار فى كل بلاد العالم الغربى ، وازداد انتشارها يوما بعد يوم ، فكانت صقلية كما قال الباحثة الكبير سيد هورف « باب الشرق للتوغل فى بلاد الغرب » .

وانى لأضرب على ذلك مثلا ، لكي ندرك كيف تتسرب المدنية والنور ، من جهة الى جهة ، بالباحث الكبير ، والطبيب الممتاز قسطنطين الصقلى أو الافريقي ، كان ذلك المعلم الفذ العبرى تونسيا ، ولد حوالي سنة 400 هجرية ، وتلقى مجمل علوم عصره ، ومنها علم الطب ، ثم سار الى صقلية ، ومنها اجتاز الى ايطاليا ، تاجرا ، فحل بمدينة ساليرنا ، واتصل باميرها ، جيزولف ، وعلم بعد مقابلة له مع اطباء الطليان يومئذ انهم لم يكونوا يدرسون كتابا ، ولا يتلقون علماء ، انما قصارى أمرهم انهم يعتمدون بعض التجارب .

عاد الى تونس وهو يحمل بين قحفيه مشروعا عظيما ، واعتكف على دراسة الطب بكل ما أوتيه من قوة ومن عزم ، فتبخر في ذلك العلم الذى كانت له سوق نافقة ببلاد المسلمين ، وتزود من الكتب الطبية ما يشفي غليل بحثه ، ثم أمّ مدينة ساليرنا من جديد ، واعتكف على دراسة اللغة اللاتينية حتى استوعبها ، وحذفها ، وصاحب جماعة من الرهبان فأخذ عنهم أسرار اللسان ، وازداد نهمه فأتم دير كاسان ، وكانت له شهرة عالية ، وأصبح القوم هنالك يسمونه باسم قسطنطين الصقلى ، وما كاد يعلو نجمه هنالك ، حتى أخذ يدق على طلاب العلم مما وهبه الله من معرفة ، فأسس مدرسة ساليرزا الطبية ، التي كانت جامعة علم حقيقية ، هي أول جامعات العلوم الطبية فى أوروبا قاطبة ، وقد بقيت قرون عدة ، والى ما بعد عصر النهضة الاوروبية الحديثة ، حاملة راية الطب

الواعى المدرس، ومنها أخذ كل علماء أوروبا يومئذ . ولقد قدم اللاوروبين ، من مدرسة ساليرنا ، ترجمة لكتاب العلامة ابن الجزار، المعروف باسم « زاد المسافر » تحت اسم « فيتاكوم » . فيما لبث ذلك الكتاب الشهير أن أصبح عمدة أوروبا في الطب ، وعاش في بعض جامعات الشمال إلى حوالي سنة 1910 . وقدم بعد ذلك ترجمة صحيحة مدققة ، حسبما أكده بعض كبار العلماء الالمان بمدينة ميونيخ ، سنة 1964 ، لكتاب على بن العباس تحت اسم :

كما ترجم كتابا للرازي ، وأخرى لاسحاق بن سليمان . وقضى كامل حياته مدرساً مداويا ، مؤلفا . ولقد بلغت تصانيفه في فنون الطب 22 كتابا ، طبعت كلها في أوروبا زمن النهضة الكبرى ، فيما بين سنتي 1536 و 1539 ومنها : قانون الطب في 12 كتابا – والاعضاء الداخلية في جسم الإنسان – وكتاب الجراحة – وكتاب العيون – وكتاب طبيعة الإنسان ووظائف الاعضاء ، إلى آخر تلك السلسلة الذهبية المماثلة التي كانت من أحسن الهدايا التي قدمها الشرق الإسلامي للغرب المسيحي . ومات في دير جبل كاسان سنة 375 هـ ، ومنمن خلد ذكره ، وتغنى بآثاره ، العلامتان : دامبرغ وسيدهوف .

كذلك ، أيها السادة الأجلاء ، انتشرت من صقلية الإسلامية بحوث المغرافيا العميقية ، العلمية ، في كل اقطار العالم المعروفة يومئذ ، ومن منكم لا يعرف الكثير الكثير ، عن الشرييف محمد الادرسي ، المغربي الأصل ، المولود بمدينة سبتة سنة 487 هـ ، وما ان أصبح عارفا يشار اليه بالبنان ، حتى تبحر في علم الهيئة . ودرس المغرافيا دراسة نظرية وتطبيقية ، الى ان صار علم اعلامها ، وشق عباب البحر مسافرا الى ان حل بمدينة بالرمة ، وكان عليها الملك رجار النورماندي وهي زاخرة بالعلماء الاكابر الاعلام ، من رجال المسلمين ، فقربه رجار اليه ، وجعله صديقا ورفيقا . واللـف باشارة رجار ديوانه المغرافي ، الاكـبر « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ويقول عنه

الاستاذ لوريش ، فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى ، ما نصه : « هو أكبر كتاب جغرافي تركه لنا العرب . وان ما دققه الادريسي من تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف ، يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا فى مستهل القرون الوسطى » .

والذى امتاز به الادريسي ، الى جانب كتابه ذلك ، نقشه لمصور جغرافي بديع ، فوق دائرة من الفضة وزنها 1800 أوقية ، قسم فيها الدنيا المعروفة اذ ذاك سبعة أقاليم متوازية ، بحيث يبتدىء الاقليم الاول حوالى خط الاستواء ، وينتهى الاقليم السابع عند المحيط المتجمد الشمالي . ولقد ترجمت هذه الدائرة الجغرافية الكبرى الى الفرنسية سنة 1619 ، على يد المستشرق الكبير الاستاذ جوبيير ، ونشرت في جزعين ، ومات الادريسي الكبير بمدينة بالرمة سنة 568 هـ (1180 ميلادية) .

بمثل هؤلاء تكّونت النهضة الاوروبية ، وبمثل هؤلاء اخترق نور العلم الاسلامي غيابه أوروبا المظلمة ، وبمثل هؤلاء تم اعظم تبادل عرفه العالم في كل عصوره ، ألا وهو التبادل العلمي والثقافي . هذا ما رأيت سادتي الكرام وابنائي البررة ، ذكره من أمر صقلية الاسلامية الحالدة على صفحات التاريخ ، وما كان لها من اسهام عظيم في بث أنوار العلم والفن والثقافة، في بلاد أوروبا السادرة يومئذ في ظلمات الهمجية والجهل الفظيع . واني لأقول أخيرا ، ان صقلية الاسلامية هذه كان أيام مجدها العلمي ، ومدنيتها الساطعة موطنًا لطائفة لا يشق لها غبار ، من كبار الادباء ، ومن نوابع الشعراء الملهمين ، من يكاد يفوق أدبهم ويسمو شعرهم على قرنائهم من أدباء وشعراء الاندلس . ومما يمتاز به شعراء صقلية الأكابر ، إمعانهم في وصف بلادهم ، وتفنّيهم جميعاً بذكر محسناتها ، وتفانّيهم في الترنم بالحان بهاها الوضاء . يقول عبد الرحمن بن أبي العباس الصقلي من قصيدة طويلة :

عيش يطيب ومنظر يستعظم
 يا حبذا جريانها المتقسم
 وعلى خليجيك الغرام مخيم
 ببحر المشيد به المقام الاعظم
 ترنو الى سمك المياه وتتبسم
 والطير بين رياضها يتبسّم
 نار على قصب الزبرجد تضرم
 قد بات من ألم الهوى يتآلّم
 صوب الحياة بتواصل لا يصرم

فواحة البحرين جمعت المني
 قسمت مياهك في جداول تسعه
 في ملتقي بحر يرك معترك الهوى
 لله بحر النخلتين وما حوى الـ
 وكأن اغصان الرياض تطاولت
 والحوت يسبح في صفاء مياهاها
 وكأن نار نرج المجزية اذ زها
 وكأنما الليمون صفرة عاشق
 يا نخلتي بحرى بلزم سقيتما

ويقول عبد الرحمن بن عمر الصقلي :

ادر العقيق العسجدية وصل اصطباحك بالعشية
 وا لاغاني المعدية واشرب على وقع المثانى
 بذرى صقلية هنية ما عيشة تصفو سوى
 ويقول أبو عبد الله محمد بن الحسن الصقلي . ويعتبر قوله
 أول صرخة اصلاحية ضد بدعة التصوف :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاء اذا غنى المغنونا
 ولا صياح ، ولا رقص ، ولا طرب ولا تقاش كان قد صرت مجئونا
 بل التصوف أن تصفو بلا كدر و تتبع الحق ، والقرآن والديننا
 أو يقول لك ابن حمديس الكبير ، العظيم ، العملاق : يصف
 صقلية و رجالها ، ويكون قوله هذا مسك الختام :

ولو ان أرضي جرة لا تبعتها بعزم يعيد السير ضربة لازب
 ولكن أرضي كيف لي بفكاكها من الاسراف أيدي العلوج الغواصب
 أحين تفاني أهلها طوع فتنة يضرم فيها ناره كل حاطب
 ولم يرحم الارحام منهم أقارب . تروى سيوفا من دماء الاقارب

وكان لهم حذب الأصابع لم يكن رواجبا منها حانيا رواجبا
أناس إذا أبصرتهم في كريهة رضيت من الأساء عن كل غاضب
إذا خالدو في مأزق الحرب جردوا صواعق من أيديهم في سحائب
إذا سكتوا في غمرة الموت انطفوا على البيض بيسن المرهفات القواصب
أولئك قوم لا يخاف انحرافهم عن الموت ان حامت اسود الكتايب
اذ ضل قوم عن سبيل الهدى اهتدوا وأى ضلال للنجوم الثوائب
وكم فيهم من صادق الناس مفكر اذا كر في الاقدام لا في العوائب
إذا ما غزوا في الروم كان دخولهم بطون الخلايا في متون السلاhib
يموتون موت العز في حومة الوغى اذا مات أهل الجبن بين الكوابع
حشوا من عجاجات الجهاد وسائلها أعدت لهم في الدفن تحت المناكب
فعادوا افول الشهب في حفر البلا وأبقوا على الدنيا سواد الغياب
امثلها في خاطرى كل ساعة واجرى لها قطع الدموع السواكب
احن حنين البنت للموطن الذى مغاني غوانيه اليه جواذبى
ومن سار عن ارض ثوى قلبه بها تمنى له بالجسم أوبة آيب
والسلام عليكم سادتني الاجلاء ، وابنائي نجوم المستقبل
الوضاءة ، ورحمة الله وبركانه .